وحيد وصديقه العاشر

نوادر عبدالله بريمة / السودان

إنها السادسة صباحاً ، عبر نافذتي الصغيرة أرى السماء تمطر فرحاً وبهجة ، وأستنشق عبق بعض الذكريات الهاربة من حديقتي المتواضعة ؛ خلف كوخي الجميل ؛ أرى عصافيري الصديقة تغني منادية عليَّ لأنثر لها بعض البذور ؛ وأنا في هدأةٍ لطالما شغفت بها عبر كل هذه السنين.

إنها السادسة صباحاً يا صديقي كما عهدناها ، في هذه القرية الصامتة لولا صخبنا المشاكس، اليوم مميز جداً ؛ لأنك ستعرف عني الكثير؛ سأعترف بأسرار ما أنزل الغيث حرفا ليعيرني إياه و أكتبها به، أسرار حبستها عنوة وقسوة ، اليوم سنقيمُ وليمةً كبرى بنكهتي وذكرى الآفاق المشتاقة، بعض الأمنيات ستسحرك يا صديقي؛ لأنك ما عهدت مني حزناً ؛ لكن أرجوك لا تفزع ، فأنا أعلم أنني أثقلتك بوحاً طوال هذا العام ، كما أعلم أننا قاربنا على الوداع، كلها بضع خطوات ونفترق، سأعرفك اليوم على نفسي بأدق تفاصيل أيامي الغابرة ، وربما إيجازاً في صمتٍ بليغٍ يكفيك معرفة بأنني أعشق هذا المكان؛ بكل ما أوتيت من ضعفٍ وعطف واحتراق ؛ أعشقه لذاتي، ولاَ أحد من هذه القرية يعلم هويتي إلا أنت ستدركها الآن؛ قطنت هذه القرية لعقدينِ من الزمانِ وها أنا اليوم أسدل ستار الخمسين من عمري؛ يا لها من مصادفةٍ أن يكون اليوم هو خاتمة عمرك معي يا صديقي؛ عام بأكمله سامرتني فيه بجراحي و عنفواني و سخفي ورجاحتي الهزيلة ؛ كنت كل يومٍ أستيقظ عند هذه الساعة، أهرول شوقاً إلى حديقتي أُصابحها بعنايةٍ فائقةٍ.

أتفقد أشجاري والعصافير والحمائم، ودجاجاتي المزعجة؛ أُطعمهم بعض الدخن تارة، وتارة بعض فتات الخبز الجاف ؛ بينما أنا جالس على الكرسيِ الخشبيِ ، ذو الثلاثة أرجل؛ حيث تعيدني هذه اللحظات إلى الثلاثين حين كنت أُدرس التاريخ في إحدى المدن البعيدة ، في مدرسة بسيطة جداً بطلابها وأبنيتها كما هو الحال في عموم بلادي، وها هو تاريخي الآن يكتب بعد حصة الحديقة ، أحتسي كوب الشاي الأخضر ببعض القرنفلات ، وأسرع إلى دراجتي لأبدأ الطريق إلى سوق القرية، التي تعمها فوضى الرمال ، وفي منتصف الطريق ألتقي شجرة التبلدي الشامخة الصامدة رغم انعدام أي شيء يستحق الصمود ؛ تذكرني هذه الشجرة بجميلةٍ أحببتها، أو بمعني أحرى هي التي أحبتني، بكل شجاعة النساء ورهفهّنَ ، وبالقرب من السوقِ أقابل جميلة أخرى كل يوم تُقرئني السلام و يا لسلامها ! سلام به نوع من المبالاةِ يوحي لي بأنها حبيبتي لولا بعض الشيب على رأسي و وقاري أمامها ؛ الذي يردعني إلى واقع أنني كإسمي لا أصلح مثنى ، أصل السوق وأبيع غرباء القرية بعض الخضار و بعض منحوتاتي الخشبية التي أقضي ليالي حزني في صنعها ؛ أعود ببعض المؤن لحاجتي وحاجة من معي بالحديقة .

أما عن تلك الأيام الأولى من لقائِنا يا صديقي فكانت موحشة بكل المعاني ، إلا أنت كنت أنيسا صادقا ، صابرا وعميق الدهشة ، يأتي الليل ليجدني أنتظره بشوق إعتاده وأحرقه سنيناً ونيف ، أجدني أتلوع ألماً بلقاءِ جميلتي البعيدة ، حيث لا حدود للمسافات بيننا ؛ حبيبتي السمراء على جناتِ قلبي ؛ تربعت عشر سنوات بقربي فكانت هي العمر ؛ وما بعدها هباء مرغم أنا على تنفسه ، لأنها الحياة لا تُخيرنا بمرافقةِ من نحب إلى تلك الحياة ، وها هي عشر سنوات أخرى تمضي ؛ وأنا أقابلها في ثلاثة أزمان ، كما تغني وردي الجميل ، وليس لي قَدر سواها ، كالنهر لا يملك حق تغيير مجراه ، كالفراشة لا ترى جمال

ألوانها ، إلا عندما تتفتح الورود ، عشر سنوات غدت مبهمة ؛ وأنا أعزفها لحن شجي يجتر ذكرياتنا معاً ، بجنونها وحنينها ، أذكر شعرها الفحمي يغازل أشعة الشمس عند كل صباح .

صديقي لا تقاطعني بدمعك، دعنا نكمل وليمتنا بسلام، أعلم جيداً أن الحبر عانى جحيمي وعانيته، شكى اكتفائي وتشبعي، وأنت ما زلت تهديني بعض المساحة، لنعقد صفقة غير عادلة أنا أطالبك بهدية عامي هذا؛ وهي ألا تتركني أدمع عليك وتبتل حوافك ذات اللون

الأورق، وبالمقابل سأهديك لقب جميل، يميزك عن أصدقائي السابقين؛ لقب يجعلك مفعماً

بالأسئلة، رغم زحامك بي ومعرفتك بالكثير المُلبد بسرنا الأبدي.

أشعر الآن أن حبيبتي البعيدة صدقاً تناديني، أسمع صوتها بنفس اللكنة التي عشقتها، أراها ونفسي ترمق صبابتها، أذكر ذلك اليوم الذي جعلتني فيه أسعد رجل قبل عشرين عام؛ كما أذكر كيف تعاهدنا في حفلِ زفافنا الذي أقيم في الحديقة الصغيرة، بوجود جمع قليل من الرفاق الذين أتوا من المدينة التي كنا نعمل بها، أذكر أنها قالت كم هي محظوظة بنصفها الكامل؛ أذكر رقصنا، ولهونا، وشجارنا المتفاقم دون ريبة في حبنا ؛ كما أذكر تماماً ذلك اليوم المشئوم ، بعد عشر سنوات من نعيمي بها ؛ عندما فقدتها في غضون أسبوع ، تم نقلها إلي مستشفى المدينة الكئيب ، أذكر حين أخبرني الطبيب أنها تعاني داء خسيس يدعى (السرطان) وهو في أوج عدوانه وغزوه لجسدها ؛ أذكر لحظاتنا الأخيرة حين أخبرتني أنها حزينة لأنها لم تنجبْ لنا بذرة ؛ قلت لها إنه القضاء ؛ قالت بابتسامةٍ باهتةٍ : هذا أيضا قضائي وقدري أن أفارقك ، أوصتني على الكوخ والحديقة ، وعلى لحظاتنا التي سرقناها من الوقت ؛ بكاميرتها التي تحب ، أوصتني عليها دون بكاء ، فطاحت بي الحياة عندما رحلت عني حياتي .

أتعلم يا صديقي أن المرءَ هزيلُ واهن عندما يفقد بوصلة نبضه ويتلاشى حلمه في سراب شاسع بالأدمع ، يبقى كشجرة وحيدة في أرض بُور وشاحبة، لا يزورها الربيع ولا بعض قطرات المطر ، أتعلم كم كنت أحب المطر ؟! كم رقصت مع حبيبتي تحت كرم سحابه وتسامرنا غزلاً وشوقاً حتى آخر قطرة، ما أقصر عمر الأفراح والهوى !

ما أطول نظرات الحزن عندما يتربص بعينٍ عشقت الأمل بجنون ! ما أشقاك يا صديقي ! وما أشقاني منذ رحليها كل عام أصادق أحد مثلك أملأه حزناً وتبريحاً بحبر لا ينقطع ، و يملأني حنين إلى الكتابة كل حين، يصفعني لأعي أنني لستُ وحدي في هذا الضياع ، يلهمني جلادة في انكساري ويحيك ذكرياتي كلما تمزقت، ما أكرمك يا صديقي ! وما أتعسني وانا أفارقك بلا إرادة وأودعك بلا عَبرة ، تمهل يا صديقي ولا ترحل، مهلا لا ترحل يا صديقي قبل أن ألقبك وأعرفك على نفسي ؛ أنا الشقي وحيد السعيد بك، وأنت الحائز بكل امتنان وصلابة على لقب صديق يومياتي العاشر والأخير.

جريمة ليلة العرس

فاطنةالباي / الجزائر

في بلدة صغيرة هادئة ،تقع في المدخل الجنوبي للبلاد ،سكانها مسالمين معروف عنهم الطيبة والكرم،لم يكن أحد يتوقع ماجرى فيها.
في أول الحارة شعبية كانت تقيم زينب الفتاة الخلوقة والنشيطة مع والديها وإخوتها
الثلاثة الأصغر منها ولازالوا يدرسون،والدها يملك دكانا صغيرا ملاصقا للبيت خاص في المواد الغذائية،والدتها ربة بيت كأغلب أمهات تلك المنطقة،أما هي استطاعت أن تظفر بعمل ممرضة في القطاع العام، عمل استطاعت من خلاله أن تساعد والدها في مصاريف البيت ودراسة أخوتها،
في الجهة المقابلة يسكن موسى الفتى المتهور ،طرد من المدرسة بسبب سلوكه السيء ،وأصبح يتعاطى المخدرات بعد وفاة والده ،ولم تشفع توسلات أمه له وأختيه بأن يكف عن هذه السلوكات،وكان يأخذ المصاريف عنوة من أمه التي كانت تعمل في البيوت ،لم يكن له عمل سوى ملاحقة زينب في غدوها ورواحها ،وفي يوم اعترض طريقها وصارحها بحبه ،لكنها لم تعر كلامه أدنى اهتمام،لما رأت وسمعت عن سلوكه المنحرف.
مرت شهور والحياة تسير على نفس المنوال،لولا التغير المفاجيء والواضح على موسى الذي أصبح له محل ميكانيكا سيارات ،ولم تكن هناك سيرة يتكلم عنها أهل الحي إلا سر ذلك التغير بين عشية وضحاها ومصدره وهو الذي لم يكن ليوفر عشاءه إن وجد غداءه.
في تلك الفترة تمت خطبة زينب لعادل زميلها في العمل والذي وافق عليه مختار والد زينب لما لمس من خلقه النبيل وسلوكه الجميل،.
أصبح موسى كالمجنون عند سماعه للخبر وهو يهذي بكلام التهديد والوعيد، حتى قام بتهديد والدها أن انتقامه سيكون شديد إذا لم يتم فسخ الخطوبة.

بعد أيام أقيم فرح عائلي تم فيه دعوة الأهل والأحباب والجيران الذين فرحوا لفرحهم،وككل الأفراح الشعبية رقص الجميع على أنغام الموسيقى والأغاني الشعبية المعروفة بها المنطقة ،والكل كان سعيدا وفرحان لفرح زينب،
وغير بعيد كانت هناك أعين ترمقهم بكل غضب وحقد ،وتترصد كل صغيرة وكبيرة ،ولاتفوتها لاشاردة و لاواردة في ذلك البيت.
وزفت العروس في موكب يبهج الناظرين وكل الجيران سعيدة إلا موسى كان مهموما كأنه يخطط لأمر ما.
وقبيل الفجر بساعة عاد أهل البيت بعد أن قضوا سهرة ممتعة مع ابنتهم والعريس وأهل العريس وكل الأحباب،والوالد يحمد الله أن الفرح مر بسلام بعد أن اطمأن على قرة عينه مع الزوج الذي يستحقها.
لكن ما وجدوه في البيت ادخل الرعب في قلوبهم وتركهم متسمرين في البهو الواسع
ليأتيهم صوت من الخلف مألوف لديهم ليقطع عليهم هول المفاجأة لم يكن ذلك الصوت إلا موسى الذي أزاح القناع على وجهه وهو يوجه كلامه لوالد زينب

هاا ..ماذا ترى الآن وقت انتهى كل شـــيء ياشـــيخ مختار .لم تســـمع الكلام ونفذت ما اقدمت عليه..ألم أتوعدك بالانتقام وأن زينب لي؟
لكن مختار تظاهر بالثبات عندما رد عليه ..كل شـــيء في الحياة قسـمة ونصـــيب يا ابني ،وأن شـــاء الله ستجد قسمتك مع الأحسن من ابنتي
لتصدر من موسى ضحكة ويرمقه بنظرة كلها غضب وانتقام ..ابني ...انا لست ابنك ايها الشيخ الخرف وزينب كانت ستكون زوجتي لولا عنادك، اخر ماقاله موسى ليهمس له أحد الرجال الخمسة المقنعين بأن لم يبق على طلوع الضوء الا قليلا ،لينتفض كمن لدغته عقربة،وأمر بتنفيذ ماجاءوا من أجله .
ليستيقظ سكان الحي وكل البلد على وقع جريمة قتل شنعاء راح ضحيتها الأب والأم وابنة مع زوجها بالإضافة إلى ابن لايتعدى 15من العمر ،جريمة استعمل فيها السلاح
الأبيض ليتم ذبحهم جميعا من الوريد للوريد بدم بارد فيما وجدا الابنين الصـــغيرين منزويين في ركن من أركان البيت لم يستطيعا الحراك من هول مارأوه.
ليحملهم القاتل رســـالة مفادها..مبروك يا عروس هديتي لتتذكريني..هذا ما قاله بلال صـــاحب العشـــر ســـنوات وعائشـــة ذات ثمان ســـنوات عندما آفاقا من الصـــدمة، لتصـــاب زينب بإنهيار عصـــبي أدخلها المستشفى لأكثر من أربعة شهور ..
وبقيت تلك الحادثة رغم أنها ليســـت الأولى ولا الأخيرة في ذلك الوقت حديث البلد لبشـــاعتها ولمكانة عائلة المختار بين أهل المنطقة.
في تلك الفترة كثف رجال الشـرطة والدرك الوطني حملاتهم التفتيشـية والمداهمات لتطالعنا الاخبار بعد سـنتين بأن أفراد الجيش الوطني الشـعبي اسـتطاعت القضـاء على السـفاح موسـى واثنين من رفقائه عند مدخل المنطقة في كمين محكم.